

الترجمة بين حضارتين العربية والغربية في العصور الوسطى*

إن النظرة المتأنية في تاريخ شعوب البحر المتوسط، بصفته الشرقية والغربية تؤكد لنا حقيقة هامة، وهي وجود تباين لغوي وثقافي وعقائدي، بين شعوب هاتين الضفتين، أدى في كثير من الأحيان إلى حدوث صراعات عسكرية بينهما.

ومما يوضح هذه الحقيقة قول إيرنست باركر، أستاذ علم السياسة بجامعة كمبردج «وقولنا الصراع بين الشرق والغرب لم يكن إلا تبسيطاً جغرافياً لسلسلة معقدة من الوقائع التاريخية.

والتاريخ سجل لأشياء أجل أثراً من تنازع الأمم على بقاع من الأرض على أن ذلك إنما يزداد وضوحاً واتساعاً حين نطرح ظاهر النضال بين الشرق والغرب، وننظر إلى جوهره الذي كان يتلون من عصر إلى عصر مضطرم مما بين الديانات والشعوب والمدنيات المتنافسة»^(١).

ويبدو هذا بشكل واضح في العصور الوسطى، التي شهدت مظاهر عديدة، من علاقات التأثير والتأثر، بين الحضارة الغربية والحضارة الغربية، والتفاعل القوي بينهما.

* معاصرة القيم في مؤتمر حوار الحضارتين العربية والغربية عبر المتوسط، الذي عقد بجامعة بيروت العربية في الفترة من ٧ - ٩ مايو ٢٠٠٦.

وقد كانت الترجمة بمثابة جسر ربط هاتين الحضارتين ووسع دائرة الاتصال بينهما.

فمع بزوغ شمس الحضارة العربية، قامت حركة الترجمة إلى العربية عن بعض الثقافات الأجنبية آنذاك، كالفارسية والهندية، واليونانية التي تعد إحدى مكونات الحضارة الغربية.

وذلك في أواخر عصر بني أمية، وأوائل عصر بني العباس.

أما الترجمة عن اليونانية سواء في لغتها الأصلية، أم عن طريق بعض اللغات الأخرى، فقد بدأت في شكل محاولات فردية كمحاولة خالد بن يزيد ابن معاوية ٨٥ هـ دراسة كتب الصنعة أي الكيمياء، أملاً أن يكتشف سر تحويل المعادن إلى ذهب وقد استعان في ذلك، ببعض اليونانيين الذين جاءوا إلى مصر وتعلموا العربية.

ويتضح هذا من قول صاحب الفهرست «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم.

خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العريبي وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة»^(٣).

ومن هذه المحاولات الفردية محاولة في عهد عمر بن عبد العزيز ومحاولة في عهد هشام بن عبد الملك^(٤).

وهذه المحاولات الفردية، لم تكن لها برامج محددة، ولم تحظ بإشراف الدولة، أو أى مؤسسة علمية بها، كما حدث فى عهد الخليفة العباسى المنصور، الذى تبنى حركة الترجمة وجعلها موضع اهتمام الدولة، ومن ثم وضعت لها البرامج وحددت لها الأهداف، وأعد لها خيرة المترجمين فى هذا العصر.

وكان الاهتمام فى هذه المرحلة من الترجمة التى يطلق عليها المرحلة الأولى أو النور الأول^(٤)، موجهاً نحو كتب الفلك والطب^(٥)، ثم واصل هذا النشاط العلمى، الخليفة هارون الرشيد، وبانتهاء عهده تنتهى المرحلة الأولى من الترجمة، وتبدأ المرحلة الثانية بخلافة المأمون، وتنتهى بنهاية القرن الثالث الهجرى^(٦).

أما المرحلة الثالثة فتبدأ من بداية القرن الرابع الهجرى إلى منتصف القرن الخامس^(٧).

ويعد عهد الخليفة المأمون، عهد ازدهار حركة الترجمة، فقد أنشأ داراً لها أطلق عليها بيت الحكمة، ووضع على رأس المترجمين بها يوحنا بن ماسويه، ثم جددت هذه الدار فى عهد الخليفة الواثق، وعين حنين بن إسحاق، رئيساً عليها.

والواقع أن الترجمة عن اليونانية سواء بطريق مباشر أم بطريق غير مباشر، قد نشطت فى عهد المأمون، واتسع نطاقها فلم تعد مقصورة على كتب الطب والفلك، ولكنها تجاوزت ذلك فشملت كتب الفلسفة والمنطق والرياضيات.

وقد توافرت هذه الكتب بعد عودة أعضاء البعثة العلمية التي أوفدها الخليفة المأمون إلى بلاد الروم، للحصول على مزيد من كتب الأوائل.

يقول صاحب الفهرست «فإن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم، يسأله الإنن في انفاذ ما من مختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلاد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع.

فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الصجاج بن مطر، وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم»^(٨).

ثم يشير بعد ذلك إلى أن أعضاء هذه البعثة العلمية جاؤا من هناك «بمئات الكتب، وغرائب المصنفات في الفلسفة، والهندسة، والموسيقى»^(٩).

وربما يرجع اتساع نطاق الترجمة في هذه الفترة إلى بعض التوجهات الفكرية، التي كانت تتبناها الدولة، وتروج لها مثل مذهب الاعتزال، ذي النزعة العقلية.

فمن الثابت تاريخياً أن المعتزلة، كانوا من أوائل المفكرين المسلمين الذين اطلعوا على التراث اليوناني، وخاصة المنطق الأرسطي.

وكان هدفهم من وراء ذلك تدعيم وجهات نظرهم في الحجاج الديني بأدلة عقلية منطقية، وخاصة بعد أن رأوا بعض أصحاب الديانات والعقائد غير الإسلامية، الذين يناقشونهم في مسائل دينية، قد تسلحوا بالمنطق اليوناني، لذا كان من الضروري، أن يتسلحوا بهذا السلاح القوي،

ليدحضوا الحجة العقلية، بحجة عقلية منطقية^(١٠).

وعلاوة على ذلك، فقد كان المأمون محباً للنظر، شغوفاً بالاطلاع على علوم الأوائل، وخاصة الطبيعيات، والإلهيات والمنطق، وكثيراً ما كان تتردد أسماء هذه العلوم في مجالسه، وكان يطلب من التراجمة، نقلها إلى العربية^(١١).

ويبدو أن معظم التراجمة الذين قاموا بنقل مثل هذه العلوم اليونانية الأصل إلى العربية، كانوا من السريان، يقول دى يور «والذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان إلى العربية فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادى يكانون جميعاً يكونون من السريان.

وقد نقلوا ما نقلوه إما عن التراجم السريانية القديمة أو عن تراجم أصلحوها هم، أو قاموا بها من جديد»^(١٢).

وهذا ما يذهب إليه المستشرق الإنجليزى نيكلسون حيث يقول : «وكان عمل الترجمة يقتصر برمته على السريان إذ ترجمت كتب أرسطو، وجالينوس، وبطليموس وغيرهم من الأساتذة القدامى فى صوامع الشام والعراق، وقد أعيد ترجمة هذه الترجمات السريانية فيما بعد إلى العربية»^(١٣).

ويتضح من النصين السابقين أن السريان كان لهم دور علمى قبل الإسلام، يتمثل فى ترجمة بعض الكتب اليونانية إلى السريانية، وتعليم هاتين اللغتين ، وذلك فى القرن الرابع الميلادى، حيث كان لهم فى الشام

والعراق وما يجاورهما، خمسون مدرسة، تدرس فيها العلوم بالسريانية واليونانية^(١٤).

ومن أشهر هؤلاء التراجمة السريان يوحنا بن ماسويه، وكان على رأس المترجمين في عهد هارون الرشيد، ويوحنا البطريق مولى النأمون، وكان أميناً على الترجمة في عصره، ومع أنه كان يكىء اللسان في العربية، فقد ترجم كثيراً من كتب الأوائل.

ومنهم حنين بن إسحاق، وكان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه، ويستدل من تاريخ حياته، أنه تعلم العربية وأتقنها كما أتقن اليونانية كذلك.

ويذكر أنه كان يقوم بمراجعة ما نقل المترجمون إلى العربية ويشبهه في ذلك، قسطا بن لوقا البعلبكي الذي كان فصيح اللسان باليوناني والسرياني والعربي^(١٥).

وعلى أية حال، فيبدو أن هؤلاء التراجمة السريان كانوا يقومون بترجمة الكتب السريانية ذات الأصول اليونانية إلى العربية، أما الكتب اليونانية التي لم تترجم إلى السريانية فقد كانوا يقومون بترجمتها إلى السريانية، ثم تنقل بعد ذلك إلى العربية.

وليس من الضروري أن يقوم مترجم النص اليوناني بترجمته إلى العربية، فقد يحل محله مترجم آخر.

ويتضح هذا من فحوى كلام ابن النديم، عن ترجمة كتب أرسطو الثمانية إلى العربية.

يقول الكلام على قاطيغورياس بنقل حنين بن إسحاق، الكلام على باري أرمانبوس : نقل حنين إلى السرياني، وإسحق إلى العربي، الكلام على أنا لوطيقا الأولى، نقله ثيادروس إلى العربي، ويقال عرضه على حنين فأصلحه.

الكلام على أبو ديقطيقا وهو أنا لوطيقا الثاني مقاتلين ، نقل حنين بعضه إلى السرياني، ونقل إسحق الكل إلى السرياني، ونقل متى نقل إسحق إلى العربي.

الكلام على طوبيقا : نقل إسحق هذا الكتاب إلى السرياني، ونقل يحيى بن عدى الذي نقله إسحق إلى العربي، ونقل الدمشقي منه سبع مقالات ونقل إبراهيم بن عبد الله الثامنة، وقد توجد بنقل قديم.

الكلام على سوفسطيقا ومعناه الحكمة، نقله ابن ناعة وأبو بشر متى إلى السرياني، ونقله يحيى بن عدى إلى العربي.

الكلام على ريطوريقا : ومعناه الخطابة يصاب بنقل قديم، وقيل، إن إسحق نقله إلى العربي، ونقله إبراهيم بن عبد الله، فسرره الفارابي أبو نصر.

الكلام على أبو طيقا ومعناه الشعر : نقله أبو بشر متى من السرياني إلى العربي ونقله يحيى بن عدى، وللكندي مختصر في هذا الكتاب^(١٦).

ولما كانت معظم هذه الكتب المترجمة، ليست منقولة عن النص الأصلي بل عن نص سرياني نقل عن النص اليوناني الذي هو في الواقع النص

الأصلى، فقد تجشم بعض المترجمين كثيراً من العناء، فى سبيل نقل عبارات النص المترجم نقلاً أميناً، وقد كان هذا يضطرهم الالتزام بحرفية الترجمة وتقديم التعبير عن ألفاظ المؤلف إلى التعبير عن معانيه، فقد تتفق لهم إصابة المعنى مع الحرص على اللفظ، وقد يؤدي بهم الحرص على اللفظ إلى استغراق المعنى^(١٧)، فضلاً على حرفية نصوص هذه التراجم، فقد حقلت لغتها بكثير من الألفاظ العامية والدخيلة، وقد أدى هذا إلى اتسام لغتها بقدر ليس بالقليل من الغموض وعدم الوضوح.

وقد يكون هذا أحد الأسباب التى دفعت بعض الفلاسفة المسلمين مثل الفارابى وابن سينا، وابن رشد، إلى إعادة النظر فى بعض نصوص هذه الترجمات وشرحها، أو تلخيصها فى أسلوب واضح، مع تدعيم ذلك بشواهد من الشعر العربى^(١٨).

ويظهر أن هذا هو الذى دفع بعض المعاصرين مثل شكرى عياد وعبد الرحمن بدوى، وإبراهيم سلامة، إلى إعادة ترجمة بعض كتب أرسطو مثل كتاب الشعر، وكتاب الخطابة عن النص الأصلى^(١٩).

ومهما يكن من أمر، فيلاحظ أن معظم الكتب ذات الأصول اليونانية التى ترجمت إلى العربية، كانت كتب علوم وفلسفة ومنطق، ولم تتضمن فنوناً أدبية، ويؤكد صحة هذا رأى، قول صاحب كتاب تاريخ العلم، عن الذين أثروا فى الفكر العربى عن طريق الترجمة إنهم «كانوا على وجه التحديد العلماء الذين كتبوا فى الطب والفلك، والرياضيات والفلسفة»^(٢٠).

وتعد هذه العلوم في رأيي إحدى أسس النهضة العلمية، التي قامت على دعائمها الحضارة العربية.

ولست مغالياً حين أقول إنها أساس قوى من أسس التقدم العلمي في أي عصر من العصور، وفي عصرنا الحديث بنوع خاص.

وهذا يدلنا دلالة واضحة على القيمة العلمية للترجمة، وعلى حسن اختيار أسلافنا للمادة المترجمة.

ولو قارنا هذا بقلة عدد ما يترجم إلى العربية من كتب العلوم في عصرنا الحديث بالقياس إلى كثرة ما يترجم من كتب التسلية، وإزجاء الفراغ، لأدركنا سر تأخرنا عن ركب التقدم العلمي الذي قطعت فيه كثير من الأمم والشعوب الراقية أشواطاً بعيدة.

وعلى كل حال، فعلى الرغم من أن الترجمة عنيت بالجانب العلمي وكذا الفلسفي، وأغفلت الجانب الأدبي، فقد أثرت في اللغة العربية وأدائها تأثيراً واضحاً.

حيث وسعت من دائرة المعجم اللغوي وأمدته بثروة كبيرة من الألفاظ والمصطلحات العلمية والفلسفية.

كما أسهمت بعض العلوم المترجمة كالمنطق، في تقنين بعض العلوم اللغوية والأدبية، وتطور المصطلح النقدي والبلاغي

وقد ذكر بعض أساتذة البحث الأدبي المعاصرين شواهد عديدة على تأثر تراثنا الأدبي بالثقافة اليونانية، التي كانت الترجمة إحدى وسائل نقلها

إلى هذا التراث^(٢١).

وطبعى أن تتأثر الثقافة العربية بهذا الفكر الأجنبي الذى وصل إليها عن طريق الترجمة، ويسرى فى عروقها، فتصطبغ بعض ملامحها بصبغته العقلية.

ولاشك أن هذه الثقافة كان ينهل من معينها طلاب العلم وأعلام العصر، وعلى رأسهم المبدعون من الشعراء والكتاب، ولذا فليس من العريب أن تترك هذه الثقافة أثراً لا يستهان به فى إبداعات بعض الأبناء، فينحون فى أدبهم منحى عقلياً فلسفياً على نحو ما نجد فى كتابات بعض كتاب النثر فى العصر العباسى، وفى أشعار بعض شعراء هذا العصر^(٢٢).

ويبدو هذا بشكل واضح فى صيغ هؤلاء الشعراء، وأخيلتهم الشعرية^(٢٣).

ولا ينبغى أن تغفل أثر هذا الاتجاه الفلسفى فى حركة تجديد الشعر العربى التى بدأت فى القرن الثانى الهجرى، وادت إلى انقسام الشعراء والنقاد إلى محافظين ومجددين، وقد كان من بين المأخذ التى أخذها المحافظون على المجددين من الشعراء، محاولتهم صبغ الصياغة الشعرية، بالصيغة الفلسفية والمنطقية^(٢٤).

وقد عبر البيهقى وهو أحد الشعراء المحافظين عن هذا الموقف بقوله:

كلفتونا حدود منطقكم

نور الشعر يكفى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج الـ

منطق ، ما نوعه ، وما سببه

والشعر لمح تكفى إشارته

وليس بالهذرتولت خطبه^(٢٥)

ومهما يكن من أمر، فهذه شواهد واضحة على ما أحدثته الترجمة من تأثير مباشر، أو غير مباشر في تراثنا الأنبي.

ومن المعروف أن هذا التراث والتراث العلمى، الذى تأثر فى نشأته وتطوره بالترجمة ، يمثلان جانباً هاماً من جوانب الحضارة العربية.

لذا يمكننا القول بأن الترجمة عن اليونانية قد أسهمت إسهاماً فعالاً فى إرساء دعائم الحضارة العربية.

أما عن التجربة من العربية إلى بعض اللغات الأوربية فى العصور الوسطى، فيحسن بنا أن نقدم للحديث عنها، بوصف الحالة العلمية والثقافية لأوربا قبل اتصالها بالحضارة العربية سواء عن طريق الترجمة أم عن طرق أخرى.

وليكن شاهدنا على ذلك قول أحد أساتذة الحضارة من الغربيين واصفاً الجذب الثقافى الذى كانت تعاني منه أوربا فى العصور الوسطى، فى الوقت الذى كانت الحضارة الإسلامية فى أوج ازدهارها.

يقول : «إذا رجعنا إلى القرن التاسع والعاشر من الميلاد حين كانت

الحضارة الإسلامية في أسبانيا ساطعة جداً، رأينا مراكز الثقافة في الغرب، كانت أبراجاً يسكنها سنيورات متوحشون، يقضون بأنهم لا يقرأون.

ودامت همجية أوروبا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبد في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر من الميلاد، وذلك حين ظهر أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم، فولوا وجوههم شطر العرب، الذين كانوا أئمة وحدهم^(٢٦).

لذا لم يكن غريباً أن يشعر بعض ثوى الفطنة من الأوربيين بأهمية الثقافة العربية، ويسارعون إلى نقل أمات كتبها إلى لغاتهم، ومن ثم قامت حركة الترجمة من العربية إلى بعض اللغات الأوربية، وخاصة اللاتينية في العصور الوسطى، ونشطت في القرن الثاني عشر الميلادي، حيث كان لها مراكز في أسبانيا، وجنوب إيطاليا.

ومن أبرز هذه المراكز طليطلة، التي ورثت قرطبة في احتضانها للثقافة العربية^(٢٧)، وأنشأت بها دار للترجمة تحت رعاية كبير أساقفتها رايموندو^(٢٨)، الذي كان يجيد العربية واللاتينية، وألف في ذلك، معجماً باللاتينية والعربية، وبعض الكتب المستقاة من الثقافة العربية، مثل شرح الرمز، وخنجر الإيمان ضد المسلمين واليهود^(٢٩).

ويقال إن هذا الأسقف جمع عدداً من المترجمين في عصره وطلب منهم نقل عيون التراث العربي إلى اللاتينية، وخاصة كتب الرياضيات، والفلك، والطب، والكيمياء، والطبيعة، وما وراء الطبيعة، والمنطق والسياسة^(٣٠).

ومن أشهر مترجمي مدرسة طليطلة جُنْدِيسالفي Gundislavi وكان أحد كبار كنيسة طليطلة، ويوحنا بن داود الأسباني الذي كان يهودياً ثم تقصر.

ويبدو أن بعض مترجمي هذه المدرسة كانوا يقومون بترجمة النص العربي إلى اللغة الأسبانية الدارجة أو القشتالية، ثم يقوم مترجمون آخرون بنقله إلى اللغة اللاتينية.

ويظهر أن هذه المرحلة الثانية من ترجمة النص العربي، كان يقوم بها كبار المترجمين الذين يتقنون اللاتينية مثل جُنْدِيسالفي، ويوحنا بن داود. وقد ارتفع شأن مدرسة طليطلة، وتسايق علماء من جنسيات أوروبية مختلفة لاقتفاء آثار مترجمي هذه المدرسة.

مثل جيراردو القرموني Geradio Ciremona الذي ترجم بعض المؤلفات العربية في الطب والفلك، ومايكل سكوت Michael Scot الإنجليزي الذي نقل كتب أرسطو وابن سينا إلى اللاتينية.

وهرمان الألماني Hermanas الذي ترجم كتاب الخطابة وكتاب الشعر لأرسطو، إلى اللاتينية، مستعيناً بالترجمات والشروح العربية لهذا الكتاب^(٣١).

ويطلق المستشرق الأسباني آنخل بالنثيا على هذه الطائفة من المترجمين، اسم المترجمين الغرباء، ويصف نصوصهم المترجمة، بعدم الوضوح، نظراً لركاكة لغتها اللاتينية، ثم يقارن بينها وبين ترجمات كبار

مترجمى طليطلة فيقول : «الفرق بعيد بينها وبين الترجمات الواضحة، البليغة في بعض الأحيان، التي قام بها جنديسالفو ويوحنا الإشبيلي»^(٣٢)، ومرد هذا في رأيي إلى إتقان هذين المترجمين اللاتينية والعربية ، وهذا لم يتوافر لدى المترجمين الغرباء، حتى إن بعضهم كان يستعين على فهم النصوص العربية، واللاتينية ببعض المترجمين الذين يجيدون العربية واللاتينية.

لذا ينبغي أن يكون المترجم متقناً إتقاناً جيداً للغة النص المترجم، واللغة المترجم إليها النص.

وقد سبق أن لاحظنا معاناة بعض المترجمين السريان في ترجمة بعض النصوص السريانية المنقولة عن أصول يونانية، نظراً لعدم إجادتهم للغة النص الأصلي، وكذا اللغة المترجم إليها النص، وهي اللغة العربية.

وعلى أية حال ، فيبدو أن الاهتمام بترجمة علوم العرب في بعض مدن أسبانيا، قد ازداد في القرن الثالث عشر الميلادي ، وعلى وجه التحديد في عهد ألفونسو الحكيم ملك قشتالة وليون ، الذي كان يشرف بنفسه على هذا العمل، ومن أجله أنشأ في إشبيلية مدرسة لتعليم العربية واللاتينية.

وكان من بين أساتذتها بعض الأساتذة المسلمين الذين يتقنون العربية^(٣٣)، كما كان يشرف بنفسه على حركة الترجمة في طليطلة «وكان يأمر بترجمة ما يرى نقله من الكتب العربية خاصة، ويقوم بترتيبها وتنظيمها، وكان يراجع ما ينجز من الترجمات، ويصلح من أسلوبها»^(٣٤).

وأهم ما ترجم في عهده بالإضافة إلى علوم العرب، ترجمة القرآن

الكريم إلى اللغة الأسبانية، وكان قد ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي ، كما ترجم في عهده كذلك بعض قصص السندباد ، وبعض الحكم والمواعظ الأخلاقية والسياسية^(٢٥).

والواقع أن الاهتمام بالثقافة العربية في العصور الوسطى، ونقل علوم العرب إلى اللاتينية، لم يقصر على بعض المراكز العلمية في أسبانيا، بل امتد كذلك إلى جنوب إيطاليا، وصقلية بنوع خاص، فقد واصل النورمانديون حكام جزيرة صقلية بعد خروج العرب منها، هذا النشاط العلمي، حيث نقلوا كثيراً من كتب التراث العربي إلى اللاتينية.

وقد دفعهم إلى ذلك إعجابهم الشديد بالثقافة العربية وحضارة العرب، التي بقيت آثارها في هذه الجزيرة شاهداً عليهم.

ومن أشهر ملوكهم الذين كانوا ينهلون من معين هذه الثقافة، روجر النورمانى، وقد سار خلفاؤه على نهجه.

ومنهم غليوم الثاني الذى درس اللغة العربية وأتقنها، وكان يتخذ بعض مستشاريه من المسلمين، ويرجع إليهم فى كثير من شئونه الخاصة.

وقد زار الرحالة العربية ابن جبير صقلية فى عهد هذا الملك، وشاهد بنفسه إعجابه الشديد بالثقافة العربية، ويأصحابها.

ويتضح هذا من قوله عن هذا الملك «وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم فى أحواله، والمهم من أشغاله، حتى إن الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين.

وله جملة من العبيد السود المسلمين، وعليهم قائد منهم. ووزرائه وحجابه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة، هم أصل بولته والمرسمون بخاصته،^(٣٧).

ويضيف إلى هذا قوله عنه «ومن عجيب شأنه المتحدث به، أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمة المختصين به، الصمد لله حق حمده، كما كانت علامة أبيه الحمد لله شكراً لأنعمه»^(٣٧).

ومن ملوك أوربا الذين كانوا معجبين بالثقافة العربية، ووسطوا نفوذهم على صقلية، الملك فردريك الثاني، الذي كان على علم بالثقافة الإسلامية في أصولها العربية^(٣٨)، وقد تعلم العربية في إحدى مدارس صقلية، ويشبه في اهتمامه بالثقافة العربية وبأصحابها، بألفونسو الحكيم^(٣٩).

ومن المعروف أن فرنسيس بيكون الذى ينسب إليه اكتشاف المنهج العلمى فى العصر الحديث عاش فى هذه الجزيرة، ونهل من الثقافة العربية التى كان معجباً بها أيعا إعجاب، ويبدو أن هذه الثقافة هى التى أعانت على اكتشافه للمنهج العلمى، الذى عرفه أصحابها قبل بكون بزمان طويل.

يقول بريفوات «لقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث العلمى التجريبي كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليونانى،

ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية،

في عهدنا الهليني.

أما ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، وطرق من الاستقصاء مُستحدثه لطرق التجربة والملاحظة، ولتطور الرياضيات، إلى صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربي،^(٤٠).

والواقع أن هذه المناهج العلمية التي أدخلها العرب إلى أوروبا كانت كما رأينا ثمرة من ثمار ترجمة علوم العرب إلى بعض اللغات الأوربية، وهنا يكشف عن القيمة العلمية للترجمة.

ومما تجدر ملاحظته أن اهتمام بعض المراكز العلمية في أسبانيا وصقلية بنقل الثقافة العربية إلى بعض اللغات الأوربية، لم يُقصر على المؤلفات العلمية والفلسفية بل تجاوز ذلك إلى الفنون الأدبية.

وقد حظى الفن القصصي باهتمام كبير من المترجمين، وخاصة القصص ذات المغزى الخلقى، فقد نقل كثير منها إلى اللغة اللاتينية في القرن الحادي عشر الميلادي،

ومن أبرز المترجمين الذين قاموا بهذا العمل موسى سفيردي الذي ترجم ثلاثاً وثلاثين قصة عن العربية^(٤١).

كما ترجمت كلية ودمنة إلى اللاتينية عن أصل عربي^(٤٢) في القرن الثالث عشر الميلادي، وقدمت إلى ألفونسو الحكيم.

ويقال إن هذه ليست أول ترجمة لكتاب كلية ودمنة، إلى اللاتينية فقد

سبققتها ترجمة جون أف كابو John of Capua في القرن الثامن الميلادي، عن أصل عربي كذلك^(٤٤).

ومن المعروف أن بعض الكتاب الأوربيين قد تأثروا في بعض أعمالهم القصصية بهذا الكتاب.

ومن أبرز هؤلاء الكاتب الفرنسي لافونتين، الذي قال في مقدمة الجزء الثالث من أقاصيصه «ليس من الضروري فيما اعتقد أن أصرح بالمصادر التي استقيت منها هذه الموضوعات الأخيرة، غير أنني، أقول معترفاً بالجميل، إنني أخذت أكثرها عن بلياي الحكيم الهندي»^(٤٤)، ولاشك أن يقصد بلياي، بيديا مؤلف هذا الكتاب.

ومن ذلك أيضاً، ترجمة قصص ألف ليلة وليلة إلى اللاتينية، قبل ترجمة جالان إلى الفرنسية في القرن الثامن عشر الميلادي^(٤٥).

وقد انتشرت هذه القصص في الآداب الأوربية في العصور الوسطى، وتأثر بها بعض الكتاب الأوربيين، آنذاك، ولا يزال أثرها واضحاً في الكتابات الأوربية الحديثة، كما لا تزال تستحوذ على نفوس كثيرين منهم، ويعمل بعضهم ذلك بقوله «وإنا لنلمح في ثنايا مغامراتها الغريبة، وخيالها الخصب، أنها خلقية، في لبابها، ولولا هذه الصفة، لما شغف بها الأوربيون»^(٤٦).

وبالإضافة إلى ألف ليلة وليلة، فهناك قصص المغامرات التي ترجم الكثير منها ضمن قصص السندباد، التي عرفت في أواخر القرن الحادي

عشر باسم السينتباس Sintipas^(٤٧) وقصة حى بن يقظان لابن طفيل،
التي ترجمها إلى اللاتينية بوكوك بعنوان «الفيلسوف المعلم نفسه»^(٤٨).

وهناك لون آخر من فنون النثر العربي، أثر في نشأة بعض فنون النثر
الأسباني، وتعنى بذلك المقامات التي أثرت في نشأة الروايات البيكارسيكية.
فقد لاحظ بعض الباحثين وجود تشابه فنى كبير بين هذين الفنين،
فالمقامات تصور حياة الأدياء الجوالين الذين يتذوقون من فنهم الأدبي، لذا
يصور بطل المقامات على أنه يتمتع بقدر كبير من الذكاء، وفصاحة اللسان،
والروايات البيكارسيكية عبارة عن قصص أسبانية تدور حول حياة المشردين
والمصعاليك، ويسمى بطلها البيكارون Picaron وهو يتصف بنفس صفات
بطل المقامات^(٤٩).

ويظهر أن هذه الروايات البيكارسيكية قد أثرت القصص الأدبي
الحديث، وخاصة القصص الاجتماعي.

ومن أبرز ذلك جيل بلاس Gil blas للكاتب الفرنسي لى ساج^(٥٠).

والواقع أن تأثير الأدب العربي في الأدب الأوربية في العصور
الوسطى، لم يقصر على فنون النثر وحسب، بل تعدى ذلك إلى الشعر.

يقول جب «وربما كان خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب القرون
الوسطى أنها أثرت بثقافتها العربية وفكرها العربي في كلا شعر القرون
الوسطى ونثرها»^(٥١). ويبدو هذا بوضوح في ظهور نوع من النثر العاطفي
في إقليم البروفانس في جنوب إيطاليا، يختلف في مضمونه، وصياغته الفنية

عن الشعر القديم، وهو أقرب شبيهاً بشعر الحب العذرى في الأدب
العربي^(٥٢).

ويرى جب أن هذا النوع من الشعر قد انتقل إلى إقليم البروفانس عن
طريق الأغاني الشعبية والزجل الأندلسي، وخاصة أزجال ابن قزمان، فهناك
أوجه شبه بين هذا الزجل وهذا النوع من الشعر^(٥٣).

يضاف إلى ذلك أن الذين اشتهروا بإنشاد هذا الشعر كانوا يسمون
بشعراء التروبادور، أي الشعراء الطوافون^(٥٤)، ويظهر أن كلمة تروبادور
مشتقة من الكلمة العربية طرب^(٥٥).

وقد أثر شعراء التروبادور في بقية شعر شعراء أوربا سواء من حيث
الموضوع والمضمون، أم من حيث الشكل الموسيقي^(٥٦).

كما أثر الزجل الأندلسي والشعر الغنائي في الشعر الأوربي
كذلك^(٥٧).

ومهما يكن من أمر، فهذا يدلنا دلالة واضحة على أن الأدب العربي
شعره وبثره، قد أثر في الآداب الأوربية في العصور الوسطى تأثيراً قوياً،
بحيث صبح آداب هذه الفترة بصيفته، يقول جب : «إن تشرب العصور
الوسطى بموضوعات الأدب العربي، كان في الحقيقة يؤلف مظهراً من
مظاهر حركة فكرية عامرة شملت تلك العصور»^(٥٨).

يضاف إلى ذلك سيطرة نوع من الخيال الجامع على كتابات كثير من
الكتاب الأوربيين.

ويعد هذا عاملاً من عوامل نشأة الحركة الرومانسية يقول وارتون :
«إن ذلك النوع من الخيال الجامع الذي تعودنا أن نسميه «رومانتك» لم
يعرفه كتاب الإغريق والرومان، ويبدو أن الذين أدخلوه إلى أوروبا، أناس
كانت أساليبهم في التفكير، وأحوالهم في الخلق والإبداع غريبة على هذه
القارة.

وأغلب الظن أن أولئك الناس الذين أعاروا أوروبا هذا الخيال هم
العرب،^(٥٩).

وعلاوة على هذا كله ، فقد نتج عن ترجمة علوم العرب وأدبهم إلى
بعض اللغات الأوربية في العصور الوسطى تغلغل الثقافة العربية، في
الثقافة الأوربية واستحواذها على عقول الأوربيين ووجداناتهم ، وقد أدى هذا
إلى حدوث انقلاب خطر في الفكر الأوربي، مهد كما يقول المستشرق
الإنجليزي جب إلى نشأة النهضة الأوربية الحديثة^(٦٠).

ومصادقاً لقول جب ، فإن النهضة الأوربية الحديثة Renaissance
قامت على دعامتين، إحداهما، إحياء التراث اليوناني ، والدعامة الثانية
إحياء التراث اللاتيني، الذي تشرب الثقافة العربية في العصور الوسطى،
وأصبحت جزءاً من نسيجه العام، لحمةً وسدى.

وبناء على هذا كله، يمكننا القول بأن الترجمة عن العربية إلى بعض
اللغات الأوربية في العصور الوسطى أسهمت بقدر كبير في تشكيل ثقافة
هذه الحقبة الزمنية ، وامتد أثرها إلى العصر الحديث وما شهده من
إنجازات علمية كثيرة بفضل تطبيق المنهج العلمي الذي يعد إحدى ثمار
التفاعل بين الحضارتين العربية والغربية في العصور الوسطى.

هوامش البحث :

- (١) تراث الإسلام The Legacy of Islam الترجمة العربية، الناشر، مكتبة الآداب، ١٩٨٢م، ص ٨١-٨٢.
- (٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٢٨، ط دار المعارف بتونس (مصورة عن الطبعة المصرية).
- (٣) ابن جليل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦٦، تحقيق فؤاد السيد.
- (٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٢٢٧-٢٢٨، الناشر : النهضة المصرية.
- (٥) تراث الإسلام (فارس والعرب)، ص ٩٢ (مجموعة أبحاث لبعض المستشرقين)، الترجمة العربية، الناشر عيسى اليابى الحلبي.
- (٦) عثمان موافى، التيارات الأجنبية في الشعر العربي، ط الثانية، ص ١١٥، الناشر : دار المعرفة الجامعية.
- (٧) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.
- (٨) ابن النديم، الفهرست ، ص ٢٢٩.
- (٩) المرجع السابق، ص ٢٤٠.
- (١٠) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٢٠٥-٢٠٦.
- (١١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٢، الناشر : المكتبة العصرية ببغداد.
- (١٢) دى بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٢٨ - ٢٩، ترجمة محمد عبد الهادى أوريدة.

- (١٣) نيكلسون، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي، ترجمة صفاء خلوصي، من
١٥٥.
- (١٤) جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، ج٢، ص ١٤٩-١٥٠. ط : دار الهلال.
- (١٥) تراجع تراجم هؤلاء فى الفهرست لابن النديم، ص ٣٤١، ص ٤٠٩-٤١٥.
- (١٦) الفهرست ، ص ٢٤٧ - ٢٥٠.
- (١٧) شكرى عياد، كتاب أرسطوطاليس فى الشعر، ص ١٦٨.
- (١٨) يراجع فى ذلك شروح الفارابى وابن سينا وابن رشد لكتاب الشعر لأرسطو
- (١٩) يراجع فى ذلك ترجمة شكرى عياد لكتاب الشعر، وترجمة عبد الرحمن بدوى لهذا
الكتاب، وترجمة إبراهيم سلامة لكتاب الخطابة.
- (٢٠) جورج سارتون، تاريخ العلم، ص ٢٦٠ - ٢٦١.
- (٢١) يراجع بحث طه حسين، البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر، المنشور
ضمن كتاب نقد النثر، وإبراهيم سلامة، بلاغة العرب بين أرسطو واليوتان، ص
٢٨ - ٣٠، وأحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٢، ص ١٤٢، وشكرى عياد ، كتاب
أرسطوطاليس فى الشعر، ص ٢٥٢ - ٢٨٤.
- (٢٢) مثل بعض كتابات الجاحظ، والتوحيدى، وابن العميد، وكذلك بعض أشعار أبى
تمام والمتنبى، وأبى العلاء.
- (٢٣) راجع كتابى التيارات الأجنبية (موضوع : صياغة الشعر صياغة فلسفة،
وخصوصية الخيال).

- (٢٤) الأمدى، الموازنة بين الطائفتين، راجع مقدمة الكتاب، ط : دار المعارف.
- (٢٥) نبيوان البحتري، ج١، ص ٢١٩، ط : دار المعارف بمصر.
- (٢٦) جستاف لوبون ، حضارة العرب، ص ٥٦٦ - ٥٦٧ .
- (٢٧) تراث الإسلام، ج١، أسبانيا والبرتغال، ص ١٧ .
- (٢٨) ول ديوارنت، قصة الحضارة، ج٦، من المجلد الرابع، ص ١٧ .
- (٢٩) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٤١ (الترجمة العربية).
- (٣٠) المرجع السابق، ص ٥٣٧ .
- (٣١) المرجع السابق، ص ٥٢٩ .
- (٣٢) المرجع السابق، والصفحة.
- (٣٣) تراث الإسلام ، ج١، من ٦٠ - ٦٢ .
- (٣٤) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٧٥ .
- (٣٥) المرجع السابق، ص ٥٧٧ .
- (٣٦) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ط : بيروت.
- (٣٧) المرجع السابق، ص ٢٩٨ .
- (٣٨) العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٦٨، ط : الخامسة (دار المعارف بمصر).
- (٣٩) تراث الإسلام، ج١، ص ٥٤ .

Briffault : Making of Humanty, p. 120. (٤٠)

(٤١) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٧٩.

(٤٢) وذلك لأن الأصل الهندي لكليلة ودمنة مفقود ومن هنا تلقى أهمية الترجمة العربية.

(٤٣) تراث الإسلام، ج ١، ص ١٨٦.

(٤٤) غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص ٩٩.

(٤٥) تراث الإسلام، ج ١، ص ١٩٦، وراجع كذلك أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٩٤ - ٥٩٩.

(٤٦) تراث الإسلام، ج ١، ص ٢٠٤.

(٤٧) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٨٢ - ٥٨٣.

(٤٨) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٤٩) تراث الإسلام، ج ١، ص ١٨٨.

(٥٠) غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص ١٠٦، وراجع للمؤلف نفسه كتابه النقد الأدبي الحديث، ص ٥٠٨ - ٥٠٩.

(٥١) تراث الإسلام، ج ١، ص ٥٢.

(٥٢) المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٠.

(٥٣) غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص ١٠٨.

(٥٤) أحمد أمين، قصة الأوب في العالم، ص ٢١٧.

(٥٥) العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٧٠.

(٥٦) تراث الإسلام، ج ١، ص ١٧٥.

(٥٧) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٦١٣ - ٦٢٢.

(٥٨) تراث الإسلام، ج ١، ص ١٨٩.

Warton, History of English Poetry VI : Origin of
Romantic Fiction, P. a.

(٦٠) جب ، تراث الإسلام، ج ١، ص ١٩٠.